المحاضرة الثانية

المفضليات

١ ـ المفضليات

(أ) تنسب هذه المختارات إلى المفضل بن محمد بن يَعْلَى بن عامر بن سالم الضبي . وتاريخ ميلاده غير معروف ، وإن كان المرجح أن يكون ميلاده في أواخر العقد الأول من القرن الثاني . أما تاريخ وفاته ففيه خلاف ، إذ تجعله بعض الروايات عام ١٦٨ هـ ، في حين يرجح محققا الكتاب — من استقراء بعض الشواهد — أن وفاته كانت عام ١٧٨ هـ . (١)

والمفضل الضبي من جيل الرواة العلماء الأول . وهو رأس مدرسة الكوفة ، ولكنه ورد كذلك على البصرة فأخذ عنه علماؤها . قال ابن سلام الجُمَحي : « وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » . (٢) وكذلك وفد الضبي إلى بغداد في زمن الخليفة العباسي المنصور .

كان راوية عالماً بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها . وقد أخذ عنه كثيرون من علماء الطبقة الثانية ، وفي مقدمتهم الفرّاء والكسائي وابن الأعرابي ، وإليه ينتهي إسناد كثير من الروايات الشعرية لدواوين الشعراء ودواوين القبائل على السواء .

---

(١) انظر مقدمتهما للمفضليات ، ط ٤ دار المعارف بمصر ، ص ٢٦ .

(٢) طبقات الشعراء ، ط مصر ، ص ١٦ .

(ب) أما كيف اختار المفضل القصائد التي تضمها هذه المجموعة فلذلك قصة .

فقد كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد خرج في البصرة على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وخرج معه كثير من العلماء ، منهم المفضل . ولكن المنصور ظفر بإبراهيم أخيراً ونكل به وبأهله . وكان إبراهيم يتخفى ذات مرة عند المفضل ، وكان المفضل يتركه ويخرج . وفي إحدى المرات كان عليه أن يخرج إلى ضيعة له لبضع أيام فقال له إبراهيم : إنك إذا خرجت ضاق صدري . فأخرج إليّ شيئاً من كتبك أتفرج به . فأخرج المفضل إليه كتباً في الشعر والأخبار يقال إنها كانت ملء قمطرين . فلما عاد وجده قد علّم على سبعين قصيدة اختارها . وكان له ذوق حسن في الشعر . ويبدو أن المفضل استخرج هذه القصائد السبعين ثم زاد عليها عشرا فيما بعد . فإنه عندما ظفر المنصور بإبراهيم ظفر كذلك بالمفضل . ولكنه عفا عنه ، وألزمه ابنه وولي عهده المهدي يؤدبه . وقد قدم المفضل لتلميذه القصائد الثمانين فقرأها هذا عليه ، ثم قرئت هذه القصائد نفسها على المفضل بعد ذلك ونسبت إليه وعرفت باسمه . ثم قرئت هذه القصائد على الأصمعي « فأقرها وزادها قصائد ، وزاد في بعض قصائدها أبياتاً ، واختار قصائد أُخر . ثم جاء مَنْ بعد الأصمعي وزادوا في القصائد — أصلها ومزيدها — أبياتاً دخلت في روايتي المفضل والأصمعي ، حتى اختلطت . فلم يكن ميسوراً أن يجزم جازم بما كان أصلاً وما كان مزيداً ، إلا قليلا » . (٣)

(ج) وتضم النشرة العلمية للمفضليات ، التي صدرت طبعتها الأولى عن دار المعـــارف بمصر سنة ١٩٤٢ بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون — تضم مائة وثلاثين قصيدة . وقد كان المعروف منها إلى

---

(٣) المفضليات — مقدمة المحققين ، ص ١٣ .

عهد ابن النديم ١٢٨ قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص [١] . ومعظم شعراء هذه المجموعة جاهليون ، وقليل منهم مخضرمون ، وأقل منهم إسلاميون . وهناك ستة وعشرون شاعراً لا تضم المجموعة لكل منهم سوى قصيدة واحدة ، وثمانية وعشرون شاعراً وردت لكل منهم قصيدتان،وتسعه شعراء وردت لكل منهم ثلاث قصائد ، وشاعر واحد وردت له أربع قصائد ، هو ربيعة بن مقروم الضبي ، وشاعر واحد وردت له خمس قصائد ، هو المرقش الأصغر ، وشاعر واحد وردت له اثنتا عشرة قصيدة ، هو المرقش الأكبر.

وتضم هذه المجموعة أربعين مقطوعة لا يزيد عدد أبيات كل منها عن عشرة ، وثلاثا وأربعين قصيدة يتراوح عدد أبيات كل منها بين ١١ ، ٢٠ بيتاً ، وإحدى وعشرين قصيدة تتراوح بين ٢١ ، ٣٠ بيتاً ، وعشر قصائد تتراوح بين ٣١ ، ٤٠ بيتاً ، وسبع قصائد تتراوح بين ٤١ ، ٥٠ بيتاً ، وثماني قصائد مطولات ، تتراوح بين ٥١ ، ١٠٨ بيتاً . وأطول قصيدة في هذه المجموعة هي قصيدة سُوَيْد بن أبي كاهل ، وعدتها مائة وثمانية أبيات ، ومطلعها :

بسطتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوَصلْنا الحبل منها ما اتّسعْ

وأقصر مقطعة في هذه المجموعة تقع في بيتين ، وهي للمرقش الأكبر ، وفيها يقول :

أبَأْتُ بثعلبةَ بنِ الجُشَا م عمرو بنَ عوف فزال الوهلْ
دماً بدم ، وتعفّى الكلومُ ولا ينفع الأوّلِيـن المَهَلْ

---

(١) انظر الفهرست ص ١٠٢ ونحن نقرأ في طبعة دار المعارف بعد القصيدة السادسة والعشرين بعد المائة : تمت المفضليات وما أدخل خلالها من الزيادات برواية الأنباري الكبير أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار ، عن شيوخه أبي عكرمة عامر بن عمران الضبي وغيره . ثم هذه أربع قصائد ملحقات بها وجدت في بعض نسخ المفضليات . (ط ٤ ص ٤٢٩) .

ذكر فيهما أخذه بالثأر لابن عمه ثعلبة الذي قتله الحارث التغلبي بعد أن عمرو بن عوف من بني تغلب .

(د) ومن الواضح أن هذه المجموعة تضم العدد الأكبر من القصائد الكاملة ، بل لعل القصائد الكاملة هو هدفها الأول ، وأن ما ورد فيها من مقطعات لم يكن نتيجة اجتزاء المفضل أجزاء من قصائد كاملة ، فربما كانت المقطعة نفسها هي كل ما قاله الشاعر نفسه في مناسبته ، كما يظهر لنا من بيتي المرقش الأكبر .

وإلى جانب عمد المفضل إلى اختيار القصائد لا نجده يورد للشاعر الواحد أكثر من ثلاث قصائد إلا في النادر . وهذا معناه أنه لم يقيد نفسه بعدد ثابت مما يختاره من كل شاعر ، بل كان يتحرك في شعره بحرية فيختار أفضل ما عنده .

وكذلك لم يحدد المفضل اختياره بالأشعار التي قيلت في موضوع أو مواضيع بعينها ، بل كان طليقاً في هذا الاختيار .

أما ترتيب هذه القصائد في الكتاب فليس في وسعنا أن نستدل عليه على النحو الذي وضعه المفضل ؛ فبعد أن تناولت أيدي الرواة القصائد الثمانين التي كان المفضل قد اختارها بالزيادة فيها والإضافة إليها — على نحو ما صنع الأصمعي بها — أصبح من الصعب القطع بأي القصائد الثمانين هي تلك التي اختارها المفضل . ومحققا الكتاب يقطعان بأنها وإن كانت متضمنة فيه فإنها قطعاً لا ترد في صدره ، ولا ترد مجتمعة [1] . ومن هنا لا يتمثل أمامنا ترتيب بعينه لقصائد الكتاب [2] ، وربما لم يفكر المفضل نفسه — وقد عرفنا الطريقة التي تم بها

---

(١) انظر المفضليات ، دار المعارف بمصر ؛ ط ٤ ص ١٤ من مقدمة التحقيق .
(٢) واختلاف الترتيب واضح كذلك في شروح المفضليات . قارن شرح المرزوقي وشرح الأنباري مثلاً .

اختيار هذه القصائد — في شيء من أمر هذا الترتيب .

(هـ) ومع كل هذا فللمفضليات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة . ولم يكن رواجها بين الناس في عصر المفضل وفي العصور التالية إلا نتيجة لاستشعار الناس هذه القيمة .

أما من الناحية التاريخية فإنه أول كتاب كبير يضم مختارات من عيون الشعر القديم ، الجاهلي والمخضرم والإسلامي بروايات موثوق بها .

وأما من الناحية الأدبية فإنه تضمن قصائد كاملة كانت تعد أروع ما في الشعر القديم من قصائد ، أي أنها تعكس لنا المثل الشعري الأعلى في التصور والذوق العربي ، إذا جاز لنا أن نعد ذوق المفضل وتصوره ممثلين لذوق وتصور عامين .

على أن تفصيلات هذا التصور ومقومات هذا الذوق قد غابت جميعاً عنا ، حيث اكتفى المفضل ومن أكمل المجموعة على غراره بإثبات المختارات دون تقديم الأسباب التي جعلتهم يفضلون ما فضلوا ، بل دون أدنى تعليق . وكان يكون من كمال هذا العمل لو أن كل قصيدة أتبعت بحكم مفصل يبين وجه تفضيلها واختيارها .

وعلى كل حال فقد كانت هذه المجموعة المختارة فاتحة لمجاميع أخرى تسير على نفس الدرب ، سنعرض لها بعد قليل .

(و) وللأهمية التي بلغتها المفضليات ظفرت في عصر الشروح باهتمام كثير من الشراح . وأول من شرحها أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٠٥ هـ) . وقد حقق هذا الشرح ونشره المستشرق شارل ليال ، وأصدرته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٢٠ على نفقة جامعة أكسفورد . وهناك بعض الإشارات القديمة التي تنسب هذا الشرح إلى ابنه أبي بكر بن الأنباري ، وهو خطأ ؛ فلم تكن وظيفة الابن سوى تحرير ما

صنفه أبوه ، وإضافة بعض الاشارات في بعض الأحيان [1] .

ويلي شرح الأنباري هذا للمفضليات شرح أبي جعفر بن النحاس (ت ٣٣٨ هـ) ثم شرح أبي علي المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) . والمرزوقي قليلاً ما يشير إلى من سبقه إلى شرح المفضليات ، ولكن لا مجال للشك في أنه اطلع على شرح الأنباري ، الذي كان قد وضع قبل شرحه بقرن من الزمان [2] .

ويلي هذا الشرح شرحان آخران ، أحدهما لأبي زكريا يحيى التبريزي (ت ٥٠٢) وأبي الفضل الميداني (ت ٥١٨) .

(ز) وقد طبعت المفضليات ست طبعات :

١ — طبع الجزء الأول منها لأول مرة في ليبتسج سنة ١٨٨٥ ، وقد أخرجه المستشرق توربكه .

٢ — طبعت طبعة تجارية مصر سنة ١٩٠٦ .

٣ — طبعت في مصر كاملة في جزئين سنة ١٣٣٤ هـ — ١٩١٥ م مع تعليق يسير عليها من أبي بكر بن عمر داغستاني المدني .

٤ — طبعة المستشرق ليال ، وقد سبقت الإشارة إليها .

٥ — طبعت في مصر كاملة سنة ١٩٤٥ م مع شرح موجز لحسن السندوبي .

٦ — طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٢ مع تحقيق وشرح موجز للأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون .

وقد ذكر الدكتور عمر الدقاق [3] أن الدكتور فخر الدين قباوة الأستاذ بجامعة حلب قد عمد إلى تحقيق شرح المفضليات للخطيب التبريزي معتمداً على نسخة كتبها المؤلف بخطه ، وما يزال هذا التحقيق مخطوطاً .

---

(١) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري للمفضليات ، ص ١٤ .

(٢) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري ، ص ١٦ .

(٣) انظر مصادر التراث العربي ص ٤٥ الهامش .